الصحافة فى خدمة الطفولة

خطبة حضرة صاحب العزة الأستاذ أنطون الجميل بك

رئيس تحرير الاهرام

لم يكن لى رأى فى اختيار هذا الموضوع لحديثى معكم فقد اختاره فى مطلع هذا المؤتمر ووجدته مدونا إلى جانب اسمى فى البرنامج المطبوع .

لقد خيل الى بادئ بدء — كما قد يخيل اليكم — أنه موضوع غير متجانس معنى ، وغير متماسك مبنى . فان بين الصحافة والطفولة — مشردة بائسة كانت أو مرفهة مدللة — تنافرا فى اللفظ من حيث طبيعة الأشياء نفسها . فالطفل بطبيعته " أمى " لا يعرف الكتابة ولا القراءة ، فهو منسوب إلى الأم أى أنه على ما ولدته أمه من الجهل . فالعلاقة فى الظاهر — مقطوعة بينه وبين الصحافة ، فهو لا يقبل على الصحيفة إلا ليمزقها ويعبث بها . على أن من تدبر الأمر فى شىء من إنعام النظر لا يلبث أن يجد هذه العلاقة المقطوعة فى الظاهر — قائمة متصلة الأسباب . وعلى كل فمن ذا الذى ليست الصحافة فى خدمته ؟ إن الصحافة لم تلقب بصاحبة الجلالة — أى سيدة الجميع — إلا لأنها خادمة الجميع . فينبغى أن تكون إذن فى خدمة الطفولة كما هى فى خدمة غيرها ، لأن الطفولة بطبيعتها ضعيفة عاجزة تحتاج إلى من يأخذ بيدها ويدفع عنها ، والانتصار للضعيف والدفاع عن حقوقه من أولى واجبات الصحف ، والصحافة بعد ذلك فى خدمة الطفولة إنما هى فى خدمة الأبوة والأمومة ، ترشد الأولى إلى واجباتها وتطالب الثانية بحقوقها . ومن البديهى أن لا أمومة ولا أبوة بلا طفولة .

وقد يكون من واجب الصحافة فى هذا البلد أكثر من كل بلد آخر أن تتطوع لخدمة الطفولة وتجتهد للذود عنها ، لأن الطفولة عندنا فى مسيس الحاجة إلى الأخذ بناصرها ، وانتشالها من الهوة التى تردت فيها .

يؤخذ مما لدينا من الاحصاءات أن الوفيات فى مصر تقدر بما لا يقل كثيرا عن نصف مليون فى السنة ، وأن عدد الأطفال الذين يموتون بين الولادة والسنة الخامسة من عمرهم يزيد على نصف هذا العدد . ولا شك فى أن التشرد من أكبر عوامل الفتك بهذه الزهرات الغضرات .

فرخ الطير لا يغادر عشه قبل اكتمال ريشه الا مكرها بفعل قسوة الطبيعة أو قسوة الإنسان التى تطرده من ذلك العش .

وكذلك الطفل لا يهجر بيته فى نعومة أظفاره إلا مطرودا بقسوة الوالدين أو بقسوة المجتمع التى تقذف به من حمى البيت .

لذلك صدق من سمى أولئك الأطفال الهائمين على وجوههم " الطفولة المشردة " ، وأخطأ من سماهم " الطفولة المتشردة " فهم لم يتشردوا راضين مختارين ، ولكنهم شردوا مدفوعين مضطرين ، فهم فى الغالب مطرودون مشردون ، لا هاربون متشردون .

ومن ذا الذى طردهم وشردهم فى سن هم فيها أحوج ما يكونون إلى حنان الأب وحنان الأم ورعاية الأسرة وحماية البيت .

من ذا الذى قذف بهم قبل أن يكتمل ريشهم إلى الشوارع والأزقة معرضا أجسامهم للأمراض وأخلاقهم للفساد ؟

المسئول عن كل ذلك غالبا أبوهم وأمهم .

والمسئول عن كل ذلك دائما أنا وأنت وهو ، أى نظامنا الاجتماعى ، ذلك النظام الذى قام على الأثرة والأنانية ... قد يكون الرجل المشرد عارا على نفسه ، أما الطفل المشرد فعار علينا جميعا .

أيها السادة ، هذه الطفولة المشردة ترون منها نماذج مؤلمة ، هائمة نهارا فى الشوارع ، جائمة ليلا فى منعطفات الأزقة ، يرعشها البرد شتاء ، ويلفحها الحر صيفا ، وهى بين نهارها وليلها ترتصدها أيدى المجرمين لتدفعها إلى أحضان الرذيلة والجريمة ، وهى بين صيفها وشتائها ترقبها مخالب المرض لتلقى بها إلى التهلكة .

إن هذه الطفولة المشردة ، هذه الطفولة البائسة المسكينة تؤلف جيشا جرارا لا يقل عدده عن مائة وعشرين الفا ، تزحف كتائبه تحت راية البؤس والفساد إما الى السجون وإما الى القبور وكلا المصيرين واحد .

ومهما تغيب السجون والقبور من المشردين فان عددهم لاينقص وصفوفهم تبقى متراصة . ذلك أن الى جانب هذا الجيش العامل من المشردين ، جيشا احتياطيا يبلغ خمسمائة ألف طفل من العاطلين الذين لاعمل لهم ، فلا هم فى مدرسة يتعلمون ، ولا هم فى مصنع يعملون ، فليس أمامهم إلا التشرد يمدون كتائبه أفواجا بعد أفواج ، فيدفعهم خضمه إلى الهوة أمواجا بعد أمواج .

قال شعراء جميع الأمم الشيء الكثير فى الطفل ، ولكنى أكتفى ببيتين لحطان بن المعلى ، من شعراء صدر الدولة الأموية :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض

كانت عين الشاعر منذ ثلاثة عشر قرنا تمتنع عن الغمض إذا ما هب النسيم على طفل من أطفاله . فهل يجوز أن يغمض الواحد منا كلنا عينيه وينام ملء جفنيه وريح المنية تعصف فى كل سنة بربع مليون من أطفالنا ، وهوة الإجرام تتلقف ما يزيد على هذا العدد ؟

إحصاء المواليد والوفيات والسجون يسجل لنا هذه الأرقام الضائعة . ولكن من يسجل لنا هذه القوى التي نفقدها دون نجدها حين نفتقدها ؟ من يدون لنا قيمة تلك الثروة البشرية الضائعة التي نزدريها فنبددها ؟ من في الانتاج الأهلي غدا المزرع والمصنع ؟ من في الدفاع الوطني غدا السيف والمدفع ، إذا كان جل أطفالنا اليوم على ما نرى وما نسمع ؟

الرجل الذي يضيع مئات الألوف من ثروته يرمى بالسفه والتبذير ، فماذا ترمى الأمة التي تضيع مئات الألوف من أطفالها بسبب التشرد والتشريد ؟

إن الدولة لجد حريصة على الاحتفاظ بما لديها من الأموال ، لمشروعات الأعمال . فهل يجوز أن نكون أقل حرصا على احتياطينا من الأطفال ، وهم زينة الأمة في الحال ، وعدتها في الاستقبال . ومتى كان احتياطي المال أعلى من احتياطي الرجال ؟

أيها السادة ، إن معالجة هذا الموضوع الخطير من اختصاص غيرنا من خطباء هذا المؤتمر ، وقد سمعتم ممن تكلم قبلي وستسمعون ممن يتكلم بعدي الكثير من البدائع الروائع ، لذلك أكتفي بأن أختم كلمتي بالآية الكريمة : " ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث " .

وخير حديث بنعمة ربكم أيها السادة ، العطف على الطفولة المشردة البائسة . ولعل انضمامي الى جمعية "انقاذ الطفولة المشردة" ، ولعل حديثي معكم في هذا المساء ، من بعض ما يجب على الصحافة في خدمة الطفولة .